عبقرية خليل مطران

في الغزل والتصوير (١)

يرى كثير من النقاد أن مطران حمل راية التجديد في الشعر العربي ، وأنه برع في الغزل القصصي وفي الوصف ، فكان شاعر معان لا شاعر صناعة وصياغة ، وأن عنايته انصرفت الى معرفة الأدب الغربي يقلده ويحذو حذوه أكثر مما يقلد القدماء من العرب الفحول ، فانخفض عن زملائه البارودي وشوقي وحافظ في السبك والمتانة ، ولكنه فتح فتحاً كبيراً في صوره وألواحه وتماثيله .

ويرى هؤلاء النقاد أن ذلك راجع الى نشأته وتربيته وثقافته وتقلب حياته ، ونحب هنا أن نستعيد الخطوط الكبرى لهذه النشأة والثقافة مما يفيدنا في عرض غزله ووصفه . فقد ولد الخليل في بعلبك بعد عامين من حرب السبعين ، ولبث العالم يتحدث عن الحرب الطاحنة ، والمدافع الهدامة ، والأجساد المتساقطة ، وانتصار الألمان واندحار الفرنسيين . وسورية كانت تتصل في كثير من أجزائها بجانب واحد من ثقافة هؤلاء المحاربين وعقليتهم ، فلها أن تهتم بالقوم ، وأن تتحدث عن نكبتهم وأن ترهف السمع الى تلك الأحداث ، فدارت حول الفتى أحاديث في سهرات بعلبك وفي بيت مطران ، لا تخلو من أسى وهول ، في بشاعة الانسانية ومصائب الحروب .

ودرج الفتى في هذه المدينة الصغيرة ، وهي لمن يعرفها حديقة زرعت بالبيوت البسيطة ، وفي قلبها أعمدة سامقة ركزها الرومان في القديم ، وخلفوا على جنباتها نقوشاً لآلهتهم ، لعلها أجمل ما بقي من آثارهم في الشرق ، فهي منحوته على براعة

---

(١) الكلمة التي ألقيت في مهرجان مطران بالقاهرة في ٢٥ تشرين الأول ١٩٥٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مدهشة ، تمثل إله الحرب مارس وعليه درعه ، وديانا إلهة الصيد ، وباخوس إله الخمر وحول رأسه عناقيد العنب ، وإلهة العشق وبين ثديها تجسّم ولد ذو جناحين هو كوبيدون رسول الحب والهوى وعلة القلب في كل شاعر .

هذه الأعمدة كانت تبعث التاريخ والأسى والجمال والعظمة ، يراها الفتى إذا أصبح ويراها إذا أمسى ، قائمة الى السماء مائلة نحو الأرض ، أو نائمة الى الأبد ، فتلهو عيناه الصغيرتان بالجواري ، والحور والعنب على أطرافها ، وقلب الفتى يعبث بالتاريخ والقصص فيحلم بالحب الذي نبت في ظلالها والهوى الذي عاش في أكنافها . وبذلك ولد في نفسه عاملان عامل النحت وعامل الحب ، وقامت في قلبه مشاعر القصة والحزن والكآبة .

فلما زحزح عن بيروت وكليتها ويمم باريس لقي الجمال كذلك في كل زاوية ، وتنشق العطر عند كل شجرة ، وتعلق وهو في الثامنة عشرة بمنابع الأدب الغربي ، يعبّ من الرومانسية السائرة ، فيعشق فيني وموسه ويحفظ من شعرهما ، ويسهر مع مسرحيات باريس في قصص جميل .

وعلى هذا كله أصاب الفتى مرض العصر في لبنان وهو الهجرة والرحلة ، فوقف بين شيلي ومصر ، ولكن مصر تغلبت أخيراً ، فعاد اليها ليقضي فيها قرابة خمسين سنة ، وفي بردبه كآبة الماضي ، ورحلة التاريخ ، ونقوش الجمال ، ورومانسية الشعر . فقام في نفسه أن يحدث حدثاً في الأرض المضيفة ، وعزم على أن ينقل الشعر الغربي والمسرح الغربي الى مصر ، ففكر في أن يجعل الشعر العربي الذي ينظمه على غرار ما حفظ وما سمع ، وراح يعمل له في فهم جديد وروح جديدة على جناحين من تصوير بارع وقصص في الحب ، فكان منه ديوانه الأول ، أصدره سنة ١٩٠٨ وعمره ست وثلاثون سنة ، هو الذي يمثل شعره في رأينا ، وهو الذي نقف عنده خلال هذه الدقائق لنرى الى الغزل والوصف كيف كانا منه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صدر الديوان « ببيان موجز » شبه فيه الشعر الذي بقي له ببقايا السفينة الغريقة والقطع السالمة من الآثار ، فأذكرنا ببقايا بعلبك . وقال انه لن يخشى الخروج على المألوف من الاستعارات والمطروق من الأساليب ولكنه سيحتفظ جهده بأصول اللغة ، ورد على من سخر من شعره العصري قائلاً : « نياهؤلاء ، نعم ، هذا شعر عصري ، وفخره أنه عصري ، وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر » . ورسم في هذا البيان خطته فقال بأنه لا ينظر « الى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره ، وشاتم أخاه ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام » . فقضى على نظرية الجمال في البيت الواحد ، والشاعر بالبيت المفرد ، وأراد أن يكون الجمال بجملة القصيدة « في تركيبها ، وترتيبها وتناسق معانيها ، وتوافقها ، مع ندور التصور ، وغرابة الموضوع ، ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر وتحري دقة الوصف ، واستيفائه فيه على قدر » كما قال .

بهذه الصرخة كان خليل مطران يرسم الشعر لنفسه ولجيله فيقول : « انه شعر المستقبل لأنه شعر الحياة والحقيقة والخيال جميعا » . وعلى هذه الخطة سار في ديوانه الأول يواكب العصر والزمان ، فنشل في بعض ونجح في بعض ، ولكنه سار على الدرب ؛ وسارت قوافل الشعراء مثله على الدرب نفسه ، في المهجر ولبنان وسورية ومصر ، لأنها أحست كما أحس بضيق المعاني ، فأرادت أن تفتح على الغرب ؛ نوافذها ، تطل على ألوان جديدة ورسوم جديدة شريطة أن تستمد جذورها من عبقرية اللغة العربية وغناها وجمال طواعيتها للمعاني البعيدة المولدة ، فهي قد أعطت أبداً على الزمان لم تمنع ولم تضن .

وفي هذا الديوان الأول طغى شعر القلب على كل شيء حتى قال مطران نفسه : « الحب ثلاثة أرباع شعري » ولعله أراد أن يسد النقص في قصص الحب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لعصره ، فيملأ الخالي من حافظ ويوضح الخفيّ من شوقي ، بل لعله أراد أن ينتصر لهذا اللون في معركة الشعر ، على قصص جميل جديد .

كان في حديقة الجيزة أصيل يوم ، فرأى فتاة تنظر في عيني أمها ، وتصلح شعرها ، فوصف منها الثياب والقوام وقال :

جلست تقابل أمها وكأنما كتناهما جلست قبالة رسمها
وتناثرت ضفر الفتاة غمائما سترت عن الأبصار طلعة نجمها
فتحيرت فيما تحاول وهي قد أعيت بلا مرآتها عن نظمها
فدنت تحاذي أمها وتناظرت بعيونها وجلت سحابة همها
وكذا الفتاة إذا أضلت ساعة مرآتها نظرت بعيني أمها

وأحب أن نتلفت الى الرقة في الوصف والتغزل ، والتخلص ، لقد أعارها الخليل من شعره مرآة جلت وصفها وهو في الثانية والعشرين ، وأنامله ما تكاد تقوى على صنع المرايا ورسم الألواح ، فاذا أمسكت بازميل النحات والمثال ، طمحت الى مثل ما صنع الرومان في بعلبك .

ودرجت السنون وازميل الفتى ينحت من قصص الحب معهودة ومروية ، كأنه ترجمان القلوب وبستان الأحبة ، يسيل دمعه حيناً في فرح ، وحيناً في أسى ، فهو بيت شكوى المحبين ، وينفض أقاصيص المغرمين ، ليخفي وراءها هواه وآلامه . فكان يقلد الرومانسيين ويتبع ألفريد دفيني حين يتحدث هذا الشاعر عن بنت بَفتاح وقد نذر أبوها قرباناً أن يضحي بأول شخص يلقاه حين يعود منتصراً ، فاذا بابنته تخرج أول من يخرج للقائه ، أو حين يتحدث فيني عن الحب في قلب موسى الكليم عليه السلام ، بل لعله يتشبه ببالي موسه الأربع ، والألم ينبع من نفس الشاعر ، والآلهة تحثه على الصبر ، أو أنه شبيه بقصائد موسيه في الصفصاف ، وناموناً ، ورولا ، وكلها تتغنى بالحب الباكي والغرام الحزين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلى متن هذه القصائد الغرامية التي نسجها مطران ركب الى ساح الشعر الغربي ، فانتقل من ميدان المقطعة الغزلة أو مطالع النسيب التقليدية الى قصائد جعلها برمتها لهذا الغرض ، وصف فيها الهوى بين الفتى والفتاة وترجم ما كان بينهما من لقاء ، وأحداث ، وعواطف ، ومشاعر . فأصبح الشعر على يديه طامحاً الى أن يجاري أدب القرن التاسع عشر في فرنسة . وبذلك رسم مطران قصص الهوى في نفوس غيره ، فوصف ضلوع الأحبة وأفئدة العشاق التعساء ، وقام للشعر الرومانسي في جوى وحرقة وألم . واستعار قلوب الناس ليرسم ما في قلبه .

وألحّ مطران على ذلك حتى كانت قصة حبه سنة ١٨٩٧ ، وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، فنظم قصيدة جعل عنوانها « حكاية عاشقين » وقدمها بقوله : « نتبع الناظم وقائعها ، وكان فيها ترجمان ضمير العاشق ولسان فؤاده » . وهذه القصيدة استهوت النقاد ، واستحوذت على اعجابهم ، فتحدثوا عنها ، لأنها حقاً أطول قصائد العشق في الأدب العربي ، بل انها مجموعة مقطعات وقصائد يتغير فيها الوزن والقافية ، ويظل المعنى متلاحقاً متتابعاً ، كأنها مسرحية شعرية لمتكلم واحد (مونولوج) . وصف فيها مطران رواية الحب منذ اللقاء حتى الختام ، فيها حديث القلب ، ونعيم الحب ، تحت ضوء القمر أو في ظل الشجر ، أو على النيل المبارك ، وفيها الغضب والرضا ، والصحة والمرض . وقد ختمت بفاجعة ، لأن الفتاة سافرت الى الشام ومرضت وماتت . ومرض الفتى حتى لكأنه رسم محيل ، أو بيت عتيق شيد فيه لعابد ورع مقام .

ثم وجد الحب منديلاً بين ملابسه أبلاه مرور أعوام لم يسلم منه إلاّ الموضع الذي طرز عليه حرفان مشتبكان من اسم حبيبته ، فاستبكى وراح يغني شعراً وختم القصة بدمعة على قبرها ونجوى في ذكرها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه القصيدة المتقطعة في أوزانها وقوافيها وقعت في ديوانه على ست وثلاثين صفحة ، فكانت قصة الحب الطويلة ، هي قصة الخليل نفسه هزت كيانه فيما قيل ، وبدلت من شخصيته ، فعاش أعزب لم يتزوج بعدها أبداً ، وقد قالوا ان هذه الصدمة العنيفة كانت نهاية حبه ختمه حبها ، فماتت عذراء ، وقضى عمره شهيد الحب ، فكأنها من مسرحيات شكسبير .

وبعد أن عرفنا القصة نحب أن نستمع الى صور قليلة منها ، مثالاً على أسلوبه في الغزل القصصي أو قصة الغزل ، قال يرسم أثرها في نفسه :

ان لي في الغيب الفاً قد نأى عني نفورا
حجبت منه الليالي عنيَ الصبح المنيرا
منية قد أصبحت في خاطر الدهر ضميرا
فارق الدنيا وأبقا ني جزوعاً مستطيرا
أبتغي السير اليه حيثما بات قريرا

* * *

فاذا أدركته أطفأ تُ من وجدي السعيرا
واتحدنا فاغتدينا مزج روحين سرورا
نفحة إن هي إلاّ نسمة ضمت عبيرا (١)
أو شعاع ان تبينت فنور ضم نورا

ويعف الحبيب عن لقاء غيرها على كثرة ما وقع له من فرص ، فيقول مناجياً منديلها :

وكم عرضت لي غانيات فعفتها وصنت ضميري واللسان المشببا
وكم بلد وافيته متلهياً فغادرته أدمى فؤاداً وأكأبا

(١) في الطبعة الثانية : « وتآلفنا على الدهر نسياً وعبيراً » والبيت بعده : « أو شعاعاً » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما زال هذا الحب فيّ مؤبدا مكيناً نبت عنه السنون وما نبا
وما زلت يا منديل ليلى ملازمي تنشقني الذكرى نسيماً مطيبا
أصابك ناب قارض من ثم البلى الى موضع فيه اسمها فتجنبا
وغال فؤادي البين الا بقية قضى الحب أن أحيا بها فأعذبا

وسافر الخليل بعد هذه المأساة الى الشام سنة ١٨٩٩ ، ليستشفي من جراح قلبه وجسمه ، ويرى من جديد مدينته بعلبك وجارتها زحلة «جارة الوادي» . فلما عاد الى مصر أقبل يستمع الى قصص الحب والهوى ، يرى فيها صورة حبه ونشيد أيامه ، فيصوغها ألحاناً يبثها ألمه وبكاءه ، فهو مشوق حين يلقى العاشقين . وكان أن وقعت اليه قصة فتاة أحالها الحب من الطهر الى السقوط فنظم فيها .

هذه الفتاة فلاحية قدمت مع المهاجرين ، وكان أبوها واخوتها في فقر مدقع ، فمضت تستجدي الأكف من السابلة لتعول أسرتها ، فلما أصبحت صبية جميلة دفعها أبواها الى حانة ترتزق منها ، وتصيب عيش أهلها ، فراحت في هذا القبو العفن تشرب وتسقي حتى نصب لها شاب مخادع حبال الصيد ، ومناها بالزواج فأطاعته في الهوى حتى كان له منها ما أراد ، وحملت جنى غير مشروع ، فتركها ولاذ بالفرار . وقاست بعده آلاماً مبرحة من ذل وفقر وعار ، فمات ضميرها وقضت على جنينها الشهيد ، ونسيت الذي كان من شرف ، وغدت في خمارتها الجديدة ، بؤرة للسقوط ، لتشهد العالم على شرور الرجال وضعف النساء .

وهذه القصة ليست جديدة ، لأنها قد تقع في كل ساعة بالشرق والغرب ، انها قصة آدم وحواء ، جنت حواء فيما قالوا مرة ، فراح آدم يجني في كل ساعة مرات . ومسارح باريس مشغوفة حباً بهذا اللون ، شهدها مطران وفهمها ، وتأثر بغادة الكاميليا وأخواتها فيما تأثر به .

والمهم أن مطران نظمها في قصيدة طويلة كذلك استغرقت ثماني عشرة صفحة متصلة لا انقطاع فيها ولا عناوين بينها ، على بحر واحد ، وروي مختلف ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في أبيات خمسة جعل عنوانها « الجنين الشهيد » وقصّ فيها حكاية الحب ، فكانت من الغزل القصصي البارع ، وكانت القصيدة الملدوية التي دفعت الشاعر الى الشهرة ، قرأها نجيب الحداد فقال : « ان هذا المذهب في اعتقادي هو مذهب الشاعر في المستقبل » . وقال صاحب مجلة مركيس : « انها الياذة الشعر الحاضر ، ومعلقة النهضة الشعرية العصرية » . وذلك لأن الشاعر اعتمد على وحدة القصيدة ، فكان كالغربيين سواء بسواء ، حتى لكأن قصيدته مترجمة أو منقولة . وانها على بساطة في الأسلوب وسهولة في اللفظ ، ولو انها لا تقف للشعر الجزل الذي كان يرسله شوقي وحافظ .

ومردّ النجاح عند مطران في هذه القصائد القصصية للغزل هو هذا الوصف الذي كلف به الشاعر ، وطاوعته ريشته في رسمه ، فصوّر الحب تصويرا ، وكان في هذا الباب الشاعر الوصّاف . فكل غزله يعتمد على القصة ، والقصة تعتمد على الوصف والتصوير ، وقد كانا من أكبر الأسباب في شهرة مطران .

***

ان الوصف كان على لسان شاعرنا تصويراً للمنازع والمشاعر والعواطف ، وكان تصويراً للمشاهد والجمادات ، تأثر فيه الغربيين ، وشغف حبّاً بالألواح التي خلدها شعراؤهم . فأراد أن يكون في أدبنا رسام المشاهد الكاملة حتى لقد وازنه النقاد بابن الرومي على بعد ما بينهما من أهداف وأغراض .

والحق أن الخليل اعتمد على الوصف في مديحه وفي رثائه وفي قصص الحب ، فوصف الرجال أحياءً وأمواتاً ، وصفاً انتزعه من صميم الحياة ، في خيال قويّ وشعور واسع ، وحيوية فياضة كانت ينابيعها من صباه ومن رحلته ومن ثقافته ونفسيته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فخلف منذ صباه مشاهد في الوصف جميلة ، لعله استقاها من صور الصبي ونقوش بعلبك ، فسمت بداه الى نحت نقوش نابليون الأول حين انتصر ، ونابليون الثالث حين انكسر ، وكان في هذه القصيدة الفتية يرينا أول محاولة لوصف القتال ، والفناء ، والبشرية المتحاربة فقال في نابليون :

المجد رهن اشارة بيمينه والنصر بين يديه كالمنقاد

والفخر في راياته متمثل وطلائع العقبان في ترداد

الى أن قال في الرصاص والقنابل :

تلقى الرجال على الثرى قتلى كما يلقي السنابل منجل الحصّاد

واتخذ سبيله الى صور العقبان عن شعرنا الحمداني ، وصور السنابل عن الشعر الغربي ، ووصف الجيشين يلتقيان ، والهتاف يعلو ، والآلات تتجاوب ، والنار في كل مكان كالشهب الضخام والردى غاد وآت ، والجراح تسيل ، والأمهات يبكين الأولاد ، والحزن يعم . فكان مطران بهذا انسانياً يهتم بالمتحاربين لا بالقادة فحسب ، وينظر الى الشعب وما تكلفه الحرب حين الانتصار والانكسار من ألم وفقد وخراب . وهي نظرة بعيدة لشاب ناشئ .

فلما أراد أن يصور آثار بعلبك ، وبرصم الحجر ويستذكر طفولته وعهوده حين يلهو بهند وتلهو به هند ، وصف حاله وحالها كالفراش يجريان في الرياض ، ثم يلتقيان على قبلات عنيفة تحاكي الندى في الأسحار ، ثم انتقل الى الحجر والجماد فقال :

صنعوا من جماده ثمراً يجنى ولكن بالعقل والأبصار

وضروبا من كل زهر أنيق لم تفتها نضارة الأزهار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وشموساً مضيئة وشعاعاً باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيبات خالدات الغدو والابكار
في جنان معلقات زواه بصنوف النجوم والأنوار
وأسوداً يخشى التحفز منها ويروع السكوت كالتزآر
عابسات الوجوه غير غضاب باديات الأنيات غير ضواري
في عرانينها دخان مثار وبألحاظها سيول شرار

وكثيرة هي ألواح الوصف عند مطران في هذا الجزء الأول من الديوان ، ما نستطيع أن نستعرضها كلها ، فهناك قصيدته في فتاة الجبل الأسود وفي المساء والغروب تحمل ألواناً مختارة من الشعر ، ولكننا نحب أن نختم بصورة عن مصر تقف لصورته عن بعلبك ، وصف فيها بناة الأهرام فقال :

اني أرى عدّ الرمال ههنا خلائقاً تكثر أن تعدّدا
صفر الوجوه نادياً جباههم كالكلأ اليابس يعلوه الندى
محنية ظهورهم خرس الخطى كالنمل دب مستكناً مخلدا
مجتمعين أبحراً منفرعيـــــن أنهراً منحدرين صعدا
أكل هذي الأنفس الهلكى غداً تبني لفان جدثاً مخلّدا

وهذه الأبيات على ضآلة موسيقاها ، تلز بالصور العالمية للشعر ، ففيها براعة الازميل عند المثال ، وفيها نفسية الشاعر الإنساني ، وقلب الشاعر الاشتراكي ، وعقل المواطن الصالح . ذلك لأنها تأسى لأسى الشعب ، وتحنو عليه ، فلا تقف نفسها على مدح أمير أو تعزية وزير أو رثاء كبير ، وانما تتلفت الى البشر لتصنع منه تمثالاً ناطقاً ، يصور الألم والحزن والبشرية المعذبة منذ ولدت الى أن تموت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه الأبيات جزء مما خلف مطران لأدبنا ، صرفته الحياة ومشاغلها عن الاتقان فيه والتجويد ، فلم تكن مهنته الشعر فحسب وانما كان يسترق الوقت من وظائفه في الزراعة والاقتصاد والأوبرا ، ومن أوقات مرضه ليصوغ هذا الشعر الانساني الذي رفعه الى مواضع الإكبار والذكرى الخالدة ، فقد كان مطران أديباً بروحه وخياله مخلصاً لفنه وأمته بشعره ونثره ، محباً للتاريخ في ديوانه وفي تصنيفه ، عبّر عن ذلك في حياته الخاصة وفي شعره الكثير فكما حياته وأدبه أجمل أبراد الحياة ، واستحق منا أجمل ما تهب الحياة خلوداً على الدهر ، وعرفاناً على الأيام .

الدكتور محمد سامي الدهان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net